﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾

[المدثر: 48 - 51]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

اليأسُ من إيمان المشركين

لمّا أقرَّ المشركون على أنفسهم بقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ بما أوجبَ العذابَ الدّائمَ، فكانوا ممَّن فسدَ مِزاجُه، فتعذَّر عِلاجُه؛ سبَّبَ عنه قولَه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

ولمّا كان هذا الإخبارُ بنعيم المُنعَّم وعذاب المُعذَّب موجبًا للتَّذكُّر؛ سبَّب عنه الإنكارَ عليهم، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

وزادَ ذلك عجبًا شدَّةُ نفارِهم، فوصفَهُم تعالى بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾. ولمّا كان ذلك لا يكون إلّا لسببٍ عظيمٍ يُتشوَّفُ إليه؛ قال تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾: (نفع) كلمة تدلُّ على خِلاف الضَّرِّ[2]، ومن ذلك يقال: نفعته بكذا فانتفعَ به، والاسم المنفعة، وفلان ينتفع بكذا وكذا[3]، والنَّفع: ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخير فهو خير، فالنَّفعُ خير، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76 - 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (نفع).

﴿وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 188][1]، والنّافع في أسماء الله تعالى: هو الذي يوصل النَّفعَ إلى مَن يشاءُ مِن خَلقهِ حيث هو خالقُ النَّفع والضَّرِّ، والخير والشَّرِّ[2].

2) ﴿شَفَعَةُۥ﴾: (شفع) أصلٌ يدلُّ على مقارنة الشَّيئين[3]، ومن ذلك: الشَّفع، وهو ما كان من العدد أزواجًا، وهو خِلاف الوتر[4]، يقال: كان وترًا فشفعتُه بالآخر حتَّى صار شفعًا[5]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: 3]، والشُّفعة في الدار من هذا؛ لأنَّه يشفع بها ماله[6]، والشّافع: الطّالب لغيره، ويقال: استشفعتُ بفلان فتشفَّع لي إليه فشفَّعه فيَّ، والاسم: الشَّفاعة، واسم الطّالب: الشَّفيع[7]، وفلان يعاديني وله شافعٌ، أي: مُعين يُعينه على عداوته، كما يُعين الشّافعُ المشفوعَ له[8].

3) ﴿ٱلتَّذْكِرَةِ﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ النِّسيانِ[9]، ومن ذلك: الذّكر، وهو الحفظ للشَّيء، وجريُ الشَّيء على لسانك[10]، ويقالُ الذِّكر أيضًا لحُضورِ الشَّيءِ القلبَ، أوِ القولَ، ولذلكَ قيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ[11]، ويقال: ما زال منّي على ذُكْرٍ، أي: لم أنسَهُ[12]. وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: 63] معناه: ادرُسوا ما فيه، واستذكر الرَّجلُ: ربط في إصبعه خيطًا ليذكُر به حاجتَهُ[13]. والمرادُ بالتَّذكرةِ هنا: ما جاءهم به النبي ﷺ من القرآن وغيره[14].

4) ﴿مُعْرِضِينَ﴾: (عرض) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الطّولِ[15]، أي: اتِّساع ما يواجهُ النّاظرَ

(1) الراغب، المفردات: (نفع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نفع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (شفع).
(5) الخليل، العين: (شفع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(7) الخليل، العين: (شفع).
(8) الزمخشري، أساس البلاغة: (شفع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(10) الخليل، العين: (ذكر).
(11) الراغب، المفردات: (ذكر).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (ذكر).
(13) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ذكر).
(14) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 716، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273.
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).

مِنَ الشَّيءِ الكثيفِ[1]، وعارَض الشَّيءَ بالشَّيء معارضةً: قابلَه، وفلان يُعارضني، أي: يُباريني، والإعراض: الدُّخول في الباطل والامتناعُ من الحقِّ[2]، وإذا قيلَ: أعرضَ عنّي، فمعناهُ: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ غيرَ مُكترِثٍ[3]، وهو المرادُ هنا[4].

5) ﴿حُمُرٌ﴾: (حمر) أصل يدلُّ على جنس من الدَّوابِّ، وهو الحمار، وهو العَيْرُ[5]، أي: النَّهّاق من ذوات الأربع، أهليًّا كان أو وحشيًّا، يقال: حمار، وحمير، وحُمُرٌ، وأحمِرةٌ، وحُمُرات، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8][6]، وقد يقال للأتان: حِمارة، ويقال: قوم حمّارة وحامرة، أي: أصحابُ حمير[7]، واليحمور: حمار الوحش[8]، والمراد بالحُمُر هنا: الحُمُر الوحشية.

6) ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: (نفر) أصل يدلُّ على تجافٍ وتباعد[9]، والنَّفْرُ: الانزعاجُ عن الشَّيء، وإلى الشَّيء، كالفزع إلى الشَّيء، وعن الشَّيء، يقال: نَفَرَ عن الشَّيء نُفورًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: 42]، وقال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: 41]، ويقال: نَفَرَ القومُ إلى الحرب يَنفِرونَ ويَنفُرونَ نَفْرًا ونفيرًا[10]، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41][11]، والنَّفر والنَّفير: الَّذين إذا حَزَبَهُم أمرٌ اجتمَعوا ونفروا إلى عدوِّهم، وامرأةٌ نافرةٌ: وهي الَّتي نَفَرَتْ من زوجِها؛ لإضرارِه بها[12]. والمرادُ بالمُستنفِرة هنا: الفارَّة الهاربة[13].

7) ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: (قسر) أصلٌ يدلُّ على قهرٍ وغلَبةٍ بشدَّة[14]، ومن ذلك يقال: قَسَرْتُه على

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (عرض).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 88.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (حمر).
(6) الراغب، المفردات: (حمر).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حمر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (حمر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفر).
(11) الراغب، المفردات: (نفر).
(12) الخليل، العين: (نفر).
(13) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسر).

الأمر أقسرُه قَسْرًا[1]، إذا أكرهته عليه وقهرته، وكذلك اقتسَرته عليه[2]، والقَسْورة: العزيز يقتسِرُ غيرَه، أي: يقهَرُهُ، والقَسْورة: الشُّجاع، والقَسْورة: أوَّل اللَّيل، والقَسْور: نوعٌ من النَّبات سهليٌّ[3]، والقَسْور: الرّامي والصَّيّاد، والجمع: قَسْورة[4]. والمُرادُ بالقسورة هنا: الأسد، أو الرّامي، أو الصَّيّاد، أو أوَّل الليل[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المشركون في إعراضٍ شديدٍ عن الحقِّ لقلَّةِ فهمِهم

يقول تعالى شأنه: من كان متَّصفًا بالصِّفات المعدودة في الآيات السّابقة؛ فإنَّه لا تنفعه يوم القيامة شفاعةُ شافعٍ فيه إن وُجدت؛ لأنَّ الشَّفاعة إنَّما تنفع إذا كان المحلُّ قابلًا، فأمّا من وافَى الله كافرًا يوم القيامة فإنَّ له النّار لا محالة خالدًا فيها.

ثمَّ قال تعالى: فما لهؤلاء الكفرةِ مُتولّين عمّا تدعوهُم إليه، وتُذكِّرهم به، كأنَّهم في إعراضهِم عن الحقِّ حُمُر الوَحش إذا فرَّت ممَّن يُريد صَيدَها من رامٍ من البشر أو من أسدٍ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾:

مَن ساءَت فِعالُه وعانَدَ الحقَّ لا شفيعَ له

الفاء في قول الباري ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ للسَّببيَّة، وفائدتُها التَّنبيهُ على أنَّ إقرارَهم بما أوجبَ لهم العذابَ الدّائمَ - من ترك الصَّلاة، وتركِ إطعامِ المسكين، والخوضِ مع الخائضين، والتَّكذيبِ بيوم الدّين - سبَّبَ لهم عدمَ نفع الشَّفاعة لهم؛ لأنَّ تلك الصِّفات لازمةٌ لهم دائمًا[7].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (قسر).
(2) الجوهري، الصحاح: (قسر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قسر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قسر).
(5) الراغب، المفردات: (قسر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273 - 274.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76.

مَن ارتُهِنَ في عذاب سَقر لا تنفَعه الشَّفاعة

ويحتملُ أن تكون الفاء لتفريعِ هذه الجملة على قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، أي: فهم دائمون في الارتهان في سقر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾:

لا تنفعُ الشَّفاعةُ أهلَ سقرَ في وقتٍ من الأوقات

عُبِّر بالمضارع المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ انتفاءَ نفعِ الشَّفاعة أمرٌ مستمرٌّ متجدِّد؛ فهي لا تنفعُهم في وقتٍ من الأوقات، فقد حكمَ اللَّه تعالى بخُلودِهم في العذاب الأليم.

غرضُ الإضافةِ في ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لاميَّة، أي: فما تنفعهم شفاعةٌ للشّافعين الَّذين تنفع شفاعتهم في العادة، وفي ذلك ما لا يَخفى من التَّيئيس والإقناط.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ وجمعه:

شفاعةُ جميعِ الشّافعين على فرضِ وقوعِها لا تنفعُ المجرمين

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الشّافعين في قول الباري ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ للعُموم المستغرق لجميع الأفراد؛ إذْ لا عَهد، وذلك أنسَبُ بمقام التَّهويل والتَّخويف وقطعِ أمَلِهم في النَّجاة، والمعنى: فما تنفعُهم شفاعةُ جميع الشّافعين - أي: من نبيٍّ أو ملَك أو غير ذلك - لو شفعوا لهم جميعًا[2]. ويُقوّي هذا المعنى جمعُ اللَّفظِ الجمعَ السّالم الدّالَّ على الكثرة، ممّا يعني عدم الانتفاع من الشفاعة وإنْ كثُر الشافعون وتنوَّعوا.

فنُّ نفي الشَّيءِ بإيجابِهِ في الآية:

لا شفاعة أصلًا للمُجرمين المعذَّبين في سقر

في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ فنُّ نفي الشَّيء بإيجابه، وهو أن تذكر كلامًا يدلُّ ظاهرُه أنَّهُ نفيٌ لصفة موصوف، وهو في الحقيقة نفيٌ للموصوف أصلًا، وهنا ليس المراد: أنَّهم يُشفَعُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 328.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 148، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 360.

لهم، فلا تنفعهم شفاعة مَن يشفعُ لهم، وإنَّما المراد نفيُ الشفاعة، فانتفى النَّفعُ، أي: لا شفاعةَ شافعين لهم فتنفعَهم، وتخصيصُهم بانتفاء شفاعة الشّافعين يدلُّ على أنَّه قد تكونُ شفاعاتٌ يُنتفع بها[1].

بلاغةُ الجناسِ في ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾:

تناغُمُ ألفاظِ الآيةِ صوتيًّا

بين ﴿شَفَٰعَةُ﴾، و﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ في قولهِ ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ جِناسُ الاشتقاق، وفائدتُهُ إضفاءُ التَّناغُم الصَّوتيِّ على ألفاظ الآية. وترسيخُ انتفاءِ الشَّفاعة عن الشُّفعاء مهما تعدَّدوا، وتنوَّعوا، وكثُروا، واجتمَعوا.

معنى الفاءِ في ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾:

مَن سمعَ حالَ المعذَّبين كان شأنُه الاتِّعاظ

الفاءُ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ هي الفصيحة، للاستئناف والسَّببيَّة؛ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلَها من سوءِ حال المكذِّبين الَّذي هو من موجباتِ الإقبال عليه والاتِّعاظ به[2]، ولا شكَّ أنَّ إعراضَهُم عن التَّذكرة سببٌ للسُّؤال عن سَببه[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾:

إعراضُ المكذِّبين عن القرآنِ عجيبٌ مُستنكَر

الاستفهامُ في قوله ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ليس على حقيقته؛ فالله تعالى يَعلَمُ سببَ إعراضهم، وإنَّما هو لإنكارِ إعراضهم عن القرآن بغير سبب، مع تعاضُد موجبات الإقبال عليه، وتآخُذِ الدَّواعي إلى الإيمان به[4]؛ فالإخبارُ بنعيم المنعَّم وعذابِ المُعذَّب موجبٌ للتَّذكُّر[5]. وفي الاستفهام أيضًا تعجيبٌ من غرابة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 339، والسّمين، الدر المصون: 10/ 556، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 293.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61 - 62، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 400.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 438.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61 - 62.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76 - 77.

حالهم بحيث تجدُرُ أن يَستفهِمَ عنها المُستفهِمونَ[1]؛ فطَبعُ الإنسان إذا حُذِّرَ من شيءٍ أن يَحذرَهُ أشدَّ الحذر، كما لو حُذِّرَ المسافر من سبُعٍ في طريقه؛ فإنَّه يبذلُ جهدَهُ في الابتعاد عنه وإنْ كان المُخبِرُ كاذبًا، فكيف يُعرِضونَ عن هذا المَحذور الأعظمِ والمُخبِرُ أصدَقُ الصّادقين؟! فإعراضُهُم هذا دليلٌ على اختلالِ عقولهم[2].

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ في قولهِ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾: للملك، والمعنى: فأيُّ شيءٍ حصلَ لهم مُعرِضينَ عن القرآن؟![3].

معنى ﴿عَنِ﴾ في ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾:

﴿عَنِ﴾ في قول الحقِّ سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ للمُجاوَزة المجازيَّة، والمعنى: فأيُّ شيءٍ حصلَ لهم حالَ كونهِم مُعرِضينَ عن التَّذكرة متجاوزينَ لها.

غرضُ تقديمِ ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾:

قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ متعلِّق بـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾[4]، وتقديمُه عليه للاهتمام والتَّعجيل بالذَّمِّ والتَّوبيخ حيث كان إعراضُهم مرتبطًا بالتَّذكرة الَّتي ينبغي الإقبالُ عليها والاتِّعاظُ بها، فضلًا عن رعايةِ الفاصلة[5].

حـقُّ الـتَّـذكـرة الإقبالُ عليها لا الإعراضُ عنها

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّذكرة:

التَّذكرةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ مصدر (ذكَّر) من التَّفعيل كالتَّذكير، والمرادُ بها: القرآن، وتسميةُ القرآن تذكيرًا مبالغةٌ؛ لأنَّه مُذكِّرٌ للآخرة وأحوالها وسائر المقاصد الدّينيَّة

الـقـرآنُ مـذكِّـرٌ للآخرة وأحوالِها وسـائـرِ المقاصدِ الـدّيـنـيَّـة والدُّنيويَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76 - 77.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61 - 62.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 148.

والدُّنيويَّة[1]. ويحتملُ أن يُراد بالتَّذكرة ما يعمُّ القرآنَ من السُّنَّة والإجماع والقياس.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾:

إذا كان المرادُ بالتَّذكرة في الآية: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ القرآنَ أو التَّذكرةَ بسقر؛ فالتَّعريفُ للعهد، وإن كان المرادُ ما يشملُ كلَّ تذكرةٍ فالتَّعريفُ للجنس.

سرُّ الإتيانِ باسمِ ﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ الظّاهرِ دونَ أنْ يُؤتى بضمير:

لا تـنـفـعُ مع المكذِّبين تذكرةٌ

جيء باسم التَّذكرة الظّاهر في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ دون أن يُؤتَى بضميرٍ، نحو أن يقال: (عنها معرضين)؛ لئلّا يختصَّ الإنكارُ والتَّعجيبُ بإعراضِهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصودُ التَّعميمُ لإعراضهم عن كلِّ تذكرةٍ، وأعظمُها تذكرةُ القرآن[2].

بلاغةُ موقعِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:

لا سببَ يوجبُ إعراضَ المكذِّبين

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿مُعۡرِضِينَ﴾ حالٌ لازمةٌ من الضَّمير في الجارِّ الواقعِ خبرًا لـ (ما) الاستفهاميَّة، أعني: (لهم)، والسُّؤالُ في الحقيقة متوجِّهٌ إليها، أي: فأيُّ شيءٍ سببٌ لإعراضِهم عن التَّذكرة؟! والاستفهامُ للإنكار الوقوعيِّ، أي: لا سببَ له أصلًا[3].

وتركيب: (ما لَك) ونحوه لا يخلو من حالٍ تلحقُ بضميره مفردةً أو جملةً، نحو: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الانشقاق: 20]، وقوله: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤﴾ [الصافات: 154][4].

نكتةُ صوغِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ:

إعراضُ المكذِّبين صفةٌ راسخةٌ فيهم

جيءَ باسم الفاعلِ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 438.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.
(3) الآلوسي، روح المعاني: (15/ 148)، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 438.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.

مُعْرِضِينَ﴾؛ للدَّلالة على رسوخهم في الإعراض، وأنَّه صار خُلُقًا ثابتًا فيهم، حتَّى كأنَّه بمنزلة الجِبِلَّة والطَّبيعة، فلا انفكاكَ لهُم عنه.

علَّةُ فصلِ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾:

فُصل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾؛ لأنَّه حالٌ من المستكنِّ في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ بطريق التَّداخل أو التَّرادف، أي: مشبَّهين بحُمُرٍ نافرة[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ بالكاف:

المُعرِضُ عن التَّذكرة مستوجبٌ للذَّمِّ والتَّهجين وتقبيحِ الحال

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ تشبيهٌ بديع؛ إذ شبَّههُم تعالى في إعراضِهم عن القرآنِ واستماعِ الذِّكر والموعظةِ؛ بحُمُرٍ جدَّت في هرَبها ممّا أفزَعَها، وفي تشبيههم بالحُمُر مَذمَّةٌ ظاهرةٌ وتهجينٌ لحالِهم، كما في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5]، وشهادةٌ عليهم بقلَّة العقل. وإنَّما أوثرَ التَّشبيه بحُمُر الوحش؛ لشدَّة نفارها واطِّرادها في العَدْوِ إذا خوَّفَها شيءٌ[2]. وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿حُمُرٌ﴾:

قبحُ شأنِ مَن كان معدودًا في زُمرة الحُمُر

تنكير ﴿حُمُرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ للإفراد؛ فيُفيد أنَّهم من جملة حُمُر الوحش[4]، وفي جَعلهم من جملةِ أفرادِ هذا الجنسِ الَّذي هو مَثَلٌ في قلَّةِ العقلِ وشدَّةِ الذُّعر؛ ما لا يخفى من تقبيحِ حالهم.

نكتةُ جمعِ ﴿حُمُرٌ﴾:

جمع ﴿حُمُرٌ﴾ في قوله جلَّ ذِكره: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ جمعُ كثرةٍ على زِنة (فُعُل) باعتبار تعدُّد المشبَّهين؛ فكلُّ واحدٍ منهم مشبَّهٌ بواحدٍ من أفراد الحُمُر.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 400.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 656، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329 - 330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 77.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾:

اجتماعُ أسباب الخوفِ على الحُمُر

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ بفتح الفاء[1]، أي: منفَّرةٌ مذعورة[2]. وقرأ الباقون: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ بكسر الفاء[3]، أي: نافرة. يقال: نفرَت واستنفرَت بمعنًى، مثل عجبَتْ واستعجَبَتْ، وسَخرَتْ واستَسْخرَتْ[4]. ويمكن أن يقال: إنَّه يحصلُ بمجموع القراءتين اجتماعُ خوفين على الحُمُر، أحدهُما من داخلها، والآخرُ من القسورة، وفي ذلك زيادةُ تقبيحٍ لحال المشبَّهين؛ إذ ينفرونَ من الحقِّ نفارًا شديدًا.

نكتةُ دخولِ السّينِ والتّاءِ على ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾:

سرعةُ نِفار الحُمُرِ الوحشيَّة

السّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ على قراءة الجمهور؛ للمبالغةِ في الوصف، مثل: استكمَل، واستجابَ، واستعجَبَ، واستسخَرَ، واستخرَجَ، واستنبَطَ، أي: نافرةٌ نِفارًا قويًّا، فهي تعدو بأقصى سرعةِ العَدْوِ[5].

ويحتملُ أن تكون السّينُ والتّاءُ للطَّلب، أي: موجدة للنِّفار بغاية الرَّغبة فيه، حتَّى كأنَّها تطلبُهُ من أنفسها؛ لأنَّه من شأنِها وطبعِها[6]، وأمّا على قراءة فتح الفاء فالمعنى: أنَّها نفَّرَها مُنفِّر[7].

علَّةُ فصلِ جملة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾:

الفرارُ من القَسوَرَةِ سببُ نفارِ الحُمُر

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ عمّا قبله؛ لِما بينهُما من شبهِ كمال الاتِّصال؛ لأنَّ هذه الجملة استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالِ سائلٍ عن سبب نِفار الحُمُر؛ إذ لا يكون إلّا لسببٍ عظيم[8]،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 89.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 89.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 330.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 656، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 568 - 569.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.

وهذا على قراءة كسر الفاء. وأمّا قراءةُ فتح الفاء فمعناها: استنفرَها مستنفِر، أي: أنفرَها، فهو من استنفرَه المتعدّي بمعنى أنفرَهُ، وبناءُ الفعل للنّائب يُفيد الإجمالَ ثمَّ التَّفصيلَ بقوله: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل الفِرار ماضيًا:

الفرارُ من القسورة سابقٌ على النِّفار

مادة (فرر) تدلُّ على الظُّهور والانكشاف، وهو الرَّوَغانُ والهربُ ممّا يُخاف، ويُخشى. وهذا اللَّفظ يُناسب حالة الذُّعر الذي يُصابُ بها الحُمُر الفارَّةُ، فضلًا عن انكشافِ ظهرِها عند الهرَب. وجيءَ بصيغة الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾؛ لأنَّ الفرارَ من القسورة هو سببُ نِفارها، والسَّببُ مُقدَّمٌ على المسبَّب.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ للتَّعليل، فتفيد أنَّ سبب الفِرار هو القسورةُ، والمعنى: فرَّت بسببِ قسورة.

سرُّ إيثار التَّعبيرِ بـ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾:

الحُمُر مَثَلٌ في سُرعة النِّفار

تقدَّم أنَّ في قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ تشبيهًا لحالة إعراضهم المتخيَّلة بحالة فرار حُمُرٍ وحشيَّةٍ نافرةٍ ممّا يُنفِّرها. ولفظ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ يحتمل أن يكون اسمَ جمع (قسور)، وهو الرّامي، أو هو جمعٌ على خلاف القياس، فيكون التَّشبيهُ جاريًا على مُراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب من التَّشبيه بالحُمُر في سُرعة النِّفار.

إعراضُ المُشركين مخلوطٌ برُعبٍ من قوارع القرآن

ويحتملُ أن يكون مُفردًا، والمُراد به الأسد، وعلى هذا فهو تشبيهٌ مبتكَر لحالةِ إعراضٍ مخلوطٍ برُعبٍ ممّا تضمَّنتهُ قوارعُ القرآن، فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان. وإيثارُ لفظ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ هنا؛ لصلاحيته للتَّشبيهين، مع الرِّعاية على الفاصلة[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 330.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329 - 330.

غرضُ تنكيرِ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾:

تنكير ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ للإفراد، فإن كان المرادُ به الأسد فالمعنى: فرَّت من فردٍ من أفراد الأُسود.

وإنْ كان المرادُ مجموعة الرّواة فالمرادُ أنَّها فرَّت من جماعةٍ هي من جملة أفراد الجماعات.

فـرارُ الحُمُر من فـردٍ مـن أفـراد الأُســود أو من جماعاتِ الرُّماة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التولّي والإعراض والصَّدُّ:

التَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بتركِ الإصغاء والائتمار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 20][1]. والإعراضُ يكونُ أيضًا بترك الإصغاء ونحوه، ويكون بالجسم، إلّا أنَّه إذا قيل: أعرضَ عنّي فمعناه: ولَّى مُبْديًا عَرْضَهُ[2]. والصدُّ: هو الإعراض والعُدولُ عن الشَّيء، ومن ذلك يُقال: صدَّ يصدُّ، إذا مالَ إلى أحدِ الجانبين.

عــدمُ اكــتراث المكذِّبين بالتَّذكرة

وقد عُبِّر بالإعراض هنا؛ للإشارةِ إلى أنَّهُم لا يُصغون للتَّذكرة، ولا يأتمرون بها، بل يولّون عنها مُبدينَ عَرْضَهم، وذلك أقبحُ ما يكونُ من عدمِ الاكتراث.

الهرب والفِرار:

الفِرار: الرَّوَغانُ والهربُ من شيءٍ خافَهُ، والهربُ قد يكونُ مع خوفٍ، وقد يكون دون خوفٍ[3]. هذا بحسب الأصل، أمّا في استعمالات القرآنِ الكريم فيُلحَظُ اقترانُ الخوفِ بكلٍّ منهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: 12]، وقوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: 16]، وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: 21]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: 8].

شــدَّة خــوف الحُمُر وهلَعِها

(1) الراغب، المفردات: (ولي).
(2) الراغب، المفردات: (عرض).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فرر) (هرب).

وأوثِرَ التَّعبيرُ بالفرار هنا؛ لدلالة مادَّة (فرر) على الظُّهور والانكشاف، من ذلك يقال: فرَّ عن أسنانه وافترَّ الإنسانُ، إذا تبسَّم؛ لأنَّ أسنانه تظهَرُ وتنكشف، وكذلك الإنسان إذا فرَّ انكشفَ ظهرُه[1]، فيُفيد ذلك أنَّ الحُمُر عند هرَبِها ونِفارِها ينكشفُ ظهرُها، وفي ذلك تصويرٌ لشدَّة خوفِها وهلَعِها، وأنَّها ليست بمأمنٍ من الخطر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"